حول المكسى — الحجاج الى مكة — نظرات
في الموسيقى الشرقية

للاب توفل البسوعي

حول المكسى

عن نشرة جامعة كونيتسبرغ الرابعة لهذا العام بتوقيع ماكس لوهر (ص ٦٧ – ٦٨)

ما هي حالة الوطن القومي اليهودي في الوقت الحاضر ؟ ان نظرنا اليه من وجهته السياسية ، تحققنا انه ليس بوطن يهودي محض ، ومن المستحيل ان يكون يهودياً محضاً . وهذا ما يعترف به الصهيونيون انفسهم . ان المصلحة الوطنية في فلسطين لا تستطيع ان تتوحد الّا بادماج العنصرين اليهودي والعربي بقومية واحدة . على ان القضية تمسّ مشكلاً عسيراً حلّه . قال الدكتور وايزمن : « امامنا مثلث متصلة زواياه ببغداد والشام والقاهرة » وان الحرب العظمى والسياسة الانكليزية قد ايقظت قضية اتحاد البلاد العربية المترامية الارجاء من العراق الى مراكش ، ومرقع سورية وفلسطين من هذا الجسم الكبير كموقع العضو الحيوي من الانسان . ولذلك لم يحجم الصهيونيون انفسهم عن القول ان مستقبل الصهيونية الفلسطينية بمعظمه ، ان لم نقل بكله ، انما هو منوط بحسن التفاهم مع العرب .

على ان المسألة لم تتعقد ، وبريطانية بانتدابها قابضة على زمام الامر في الوطن اليهودي . وهذا الوطن ، تجاه الحقّ العام ، ليس هو في الحاضر الّا مقاطعة صغيرة متفرّقة العناصر موقتها في فلسطين ، وفلسطين هي مستعمرة التاج البريطاني ، ومفوّضها السامي هو موظف من قبل التاج ، والحكم والادارة والحل والعقد

الرسم ٤: امام المغرب في اللقلوق

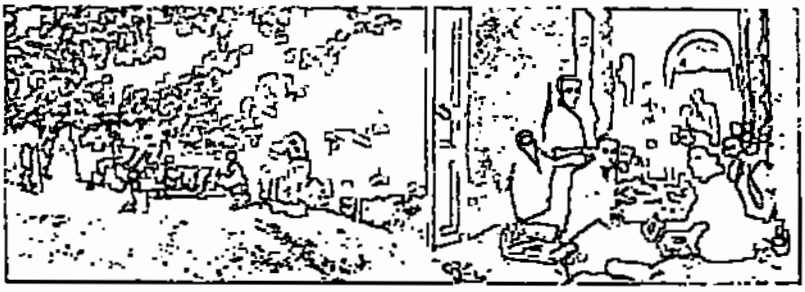

الرسم ٣: على الغداء في المجدل

الرسم ١: في اعالي بلحس

الرسم ٥ : امام بركة الارز

الرسم ٣ : امام الباب الروماني بين قرطبا وجدل العاقوره

الرسم ٦ : على جذع احد جبابزة الارز

في الوطن اليهودي مرجعه نهائياً الى الانكليز . هذا ، ومعدل رجال الشحنة الغير الانكليز ، من يهود وعرب هو كمعدّل ١٢ يهودياً بمئة عربي . وهذا المعدّل يسقط على الحدود في شرقي الاردن الى ٥ بالمئة ، وللدولة المنتدبة الحق باستخدام الطرق العامة ، ومسالك السيارات ، والخط الحديدي ، والمرافئ ، في سبيل المصلحة العسكرية . وقد وضعوا يدهم في بناء مرفأ حيفا ليجعاوه في الغد من اعظم مرافئ الساحل السوري والفلسطيني ، والظواهر تشير بنيات الانكليز في ان يجرّوا بترول العراق الى البحر عن طريق حيفا .

وليس بخافٍ على الصهيونيين ما لمصالح انكلترة من الفوائد الجمّة بالبقاء في بلادهم ، وهي في جوار ترعة السويس . لكنهم ادركوا ايضاً ان بريطانية العظمى لن تتردد في الاحجام عن حمايتهم اذا ما الجأتها الظروف الى ذلك .

وقضية الوطن اليهودي هيّنة تجاه ما يخشى الوقوع فيه من العراقيل اذا ما فتحت القضية العربية الكبرى على مصراعيها . وليس ما سنمناه من الحوادث التي جرت حول المبكى ، سنة ١٩٢٨ ، في عيد الغفران عند اليهود ، وما عرفناه عن نتائجها في داخل البلاد ، لينقض ما قلناه عن امكان اعراض الانكليز يوماً عن حماية الوطن اليهودي .

الحجاج الى مكة

جاء في المجلة الجغرافية الانكليزية (ايلول ١٩٢٩) مقال عن الحج الاسلامي ، موقّع باسم « الدون روتر » قال فيه صاحبه :

ان عدد الحجّاج المسلمين من سائر الامم يزيد بحسب ما يلاقونه من التسهيلات ، او من المصاعب ، في توجههم الى مكة . وان مصر هي في مقدمة البلاد الاسلامية عدداً بارسال مسلميها الى الحج ، وقد يبلغ عددهم سنوياً زهاء ١٥,٠٠٠ ، ولا عجب لان المصري المسلم من اي نقطة رحل قاصداً الى جزيرة العرب ، وجد ميقاتاً للسفر معيناً ووسائل للنقل تحمله الى مكة ، والى المدينة بسرعة تمكنه من القيام بفرائض الحج باقلّ من شهر واحد .

الى ان يقول :

ان عدد الحجاج الافغان القاصدين الى مكة وافر . وهم رجال خشان الطبع اقرب الى البدو خَلقاً وخُلقاً . وقد دخلتُ احدى مكاتب مكة فوجدت فيها

افغانياً يجادل صاحب المكتبة جدالاً محتدماً باللغة الفارسية ، وفهمت منه انه جاء عن طريق العجم ماشياً من غير ما يتزود لسفره بزاد . ولما بلغ الى الرياض توفق الى ركوب جمل في قافلة الامير فيصل نجل ابن السعود . واكثر الحجاج الافغان يأتون مكة عن طريق البحر من قراشي .

اما الحجاج العجم فعددهم قليل . وقد يراقبهم اهل مكة عن كثب لما يعلمون من ترفضهم وبغضهم للسنيين . وحدث ان بعضهم نجس الكعبة .

وعدد الحجاج من مراكش والجزائر وليبية قد يبلغ ١٠,٠٠٠ اجمالاً ، وكذلك عدد الوافدين من الشام وتركية والبلقان . وعدد الحجاج من الاكراد واهل بخارى ، ومن التركمان ، يبلغ الخمسة آلاف ، ومن الهند الصينية الفاً . ولا ينفك الحجاج يضربون في اواسط افريقية قاصدين الى بلاد العرب من السنغال ، والغينه ، وسيراليونه ، وليبارية ، عن طريق السودان الافرنسي ، ونهر النيجر ، والساحل الذهبي ، شرقي بلاد العبيد . فيتحركون على مهلهم ويرتزقون اما بالتجارة او بالخدمة او بالتسوّل . وقد يمرّ الالوف منهم بسوق مدينة كانو الاكبر . وعددهم يزيد مع توغلهم في البلاد الاسلامية الهمجية الواقعة جنوبي بحيرة تشاد . فتموج موجتهم ترا الى الشرق . واغلبهم مشاة ، وبعضهم يركبون الابل ، فيسيرون ببطء ويكدّون سحابة اشهر الى ان يبلغوا نهر النيل او احد سواعده ، بين جوندوكورو ودنقلة . ويهلك منهم كثير على الطريق ، واكثرهم يصطحبون نساءهم في اسفارهم ، فتلد الامهات على الطريق ، ويحملن اطفالهنّ ، ويواصلن والرجال الرحيل مدة سنة او سنتين او ثلاثاً . فاذا شرب الحجاج من ماء النيل وترطبوا ، قطعوا النهر ، ثم واصلوا سيرهم عن طريق بلاد السودان الانكليزية المصرية ، فالايريتره الايطالية ، او عن طريق الحبش والصومال حتى البحر الاحمر . فيركبونه ويسيرون والشاطئ العربي الى الحجاز ، او السير ، او اليمن حسبما تدفعهم الرياح ، والموج البشري من افريقية لا ينقطع ايباباً ذهاباً ولا يزال يزداد في البلاد المجاورة للبحر الاحمر في موسم الحج . ومن المحال تحديد عدد الحجاج الزنوج سنوياً الى مكة . والوف منهم يموتون على الطريق قبل دخولهم الجزيرة ، والوف يموتون في الجزيرة قبيل

بلوغهم غطة الآمال . امّا الذين يمرّون بجدّه او بينبُع فعددهم قليل بالنسبة الى المجموع . اينما دفعت الرياح المركب الشراعي على سواحل البحر الاحمر ، هناك يترّل البحّارون ركّابهم ، وباشارة ايديهم يدلّونهم على وجهة مكة ويتركونهم . في حي مكة المسمى المسفالة اكواخ حقيرة مركبة من جلود الحيوانات ، وتنك البترول ، وبعض الاخشاب ، هناك مقام الزنوج غالباً ، وقد لا يقلّ عددهم سنوياً عن الاربعين الفاً .

نظرات في الموسيقى الشرقية

عرفت الشهباء في اواخر القرن الماضي ، وفي مستهلّ هذا القرن اجواقاً من الملحنين ، ابناء الفن ، كان الاجانب يأتون عن بعد لسماعهم . وبلغنا عن حضرة الاب كولنجت صاحب المقالات العلمية في الموسيقى الشرقية انه لم يطرب لسماعه آلات الطرب والغناء الشرقي في مدينة من مدن الشرق طربه لسماع اجواق المغنين في حلب . وبين المغنّين الحلبيين سمعنا الشوّا صاحب الكمنجة . والشوّا رزق ابناً سمّاه سامي ، فنشأ وتعلم على ابيه ، وسافر الى نيويورك فاطرب الناس فيها من شرقيين واجانب ، وتحدث الى بعضهم في اثر الموسيقى الشرقية ، فروت حديثه مجلة السيدات والرجال (١٩٢٩ : ص ٢٤٧-٢٥١) ورويناه عنها مناسبة لمرور الاستاذ الشوّا حالياً في بيروت .

سأله المحدّث عن تأثير الموسيقى الشرقية في الافرنج فأجاب :

« لكل امرىء من دهره ما تعوّدا » . فكما اننا لا نستلذّ الموسيقى الأفرنجية كذلك الافرنج لا يستلذون موسيقانا . واذا تعودنا سماع موسيقاهم طربنا لها . وهم كذلك . لما كنت في نيويورك اجتمع بي بعض مشاهير الموسيقيين هناك لكي يسمعوا موسيقى الشرق . وقد جاءني احد مشاهيرهم خصيصاً لكي يتفهم دخائل موسيقانا . فبعد ان اسمعته بعض قطع سألته رأيه . فقال للمترجم بيننا : ليس لهذه الموسيقى « عيش » عندنا اذ لا يمكن ان يحتملها الشعب الاميركي . فقلت . قل له : هل يسمح لي ان اسمعه هذه القطعة الاخيرة كل يوم مرة واحدة فقط مدة اسبوع ؟

فقال : لقد غلبني بالحجة . اخاف اني اذا سمعتها سبع مرات اعشقها . لا بأس ان نمتحن الامر من قبيل التحقيق الفني .

قال الاستاذ سامي : وبالفعل كنت اجتمع بذلك الاستاذ الموسيقي الفنّان

كل يوم واسمعه القطعة نفسها مرة . وما انتهى الاسبوع حتى صار الرجل يهتز لها طرباً واعترف بان في الموسيقى الشرقية ما يهز الجوانح اذا اعتيد سماعه . ولقد كان الاميركان ينفرون من الموسيقى الروسية كثيراً . ولكن أتيح لها ان تعزف كثيراً في اميركة فاصبحت اخيراً عشيقة الشعب الاميركي اكثر من كل موسيقى . حتى انها عاشت في اوربة ايضاً .

ثم سأله المحدّث عن رأيه في استعمال العلامات الموسيقية لتقييد الالحان الشرقية ، فاجاب :

لا انكر فضل العلامات على الموسيقى عموماً . واذا لم يكن لها من فضل سوى ضبط الالحان وحفظها من الضياع واسترشاد الموسيقيين بها عند النسيان ، اذا لم يكن لها من فضل سوى هذا فكفى . وهي من الوسائل التي تخفف العناء على طلبة الفن .

قلت : ولكني لا اعتقد ان نقل اللحن من استاذ الى تلميذ او من عقل الى عقل عن طريق النظر يكمل نقل الروح الموسيقية معه ، لانه لا يخفى عليك ان آلة الالحان هي العصب السمعي لا العصب النظري ، والمطبعة التي تطبع بها الالحان في الدماغ هي المركز السمعي لا المركز البصري . فاقتباس اللحن من المعلم الى المتعلم عن طريق البصر انما هو طريق طويل غير مباشر فيضيع قسماً كبيراً منه في النسخ ويشوهه . ولذلك اعتقد ان اقتباس الالحان بالسمع اضمن لاقتباس روحها من الاقتباس بالبصر بواسطة العلامات . هاك بشرفك الذي سمعناه الآن . هل يمكن اي عازف مهما كان بارعاً ان يأخذه عن العلامات ويعزفه كما عزفته انت من غير أن يسمعه على اصله منك او ممن تعلمه منك او من الفونوغرافات كما امليته انت ؟

فابتسم الاستاذ ابتسامته اللطيفة المعهودة وقال : اني معك في هذه . واليك برهاناً دامغاً عليه : أخذ قطعة من رواية تابيس اربعة اساتذة عظام وهم هيفس وكبرينغ وكليزر وميشهلسن ، اخذوها جميعاً عن كتاب مطبوع . كل على حدة . وملأها كل منهم للفونوغراف . فاذا سمعتها شعرت بالفروق بين جميعها . لا تجد واحداً منها مطابقاً لآخر بالروح مهما طابقه في الوقع . وهذا مما يؤيد قولك ان العلامات تضبط اللحن ولكن لا تضبط الروح الموسيقية . لان هذه

تأتي عن يد العصب السمعي.

قلت : اذا كان الامر كذلك في ناحية واحدة فما قولك اذا كان افرنجي مثلاً يعزف بشرقك بحسب العلامات ؟ لا ريب انك لا تستطيع ان تسمعه . الا تذكر اننا كنا منذ عامين في منزل احد الاصحاب في سهرة ساهرة جمعت جمهوراً من الكرام . وكانت هناك سيدة سورية جميلة الصوت وقد درست فن الغناء درساً متقناً في اميركة وعزمت ان تتم علمها في ايطالية . وكان مما استمعناه حينئذٍ بعض طقاطيق سورية ومصرية . فكان هيكل اللحن شرقياً ، ولكن الروح افرنجية . فكم كان مستهجناً ان نسمعه . أليس مستهجناً أن تسمع طقطوقة « حوّد من هنا » مثلاً تغنى على المقامات التي وضعت لها ولكن بلهجة افرنجية بحتة ؟

فقال : لا اخالفك في ذلك.

قلت : اذاً ارجو منك ان لا تنصح طلبة الفن ان يعتمدوا كثيراً على العلامات في الاقتباس بل ان يعوّلوا بالاكثر على السمع لكي تتحرك فيهم الروح . ومن حسن الحظ ان الفونوغراف الآن يقضي هذه الحاجة بعض القضاء للبعيدين الذين لا يتسنى لهم ان يسمعوا جوقات الغناء هنا.

قال : حقاً فليحيَ اديسون.

قلت : ولكن حاذر ان تعطي الفونوغراف اكثر من حقه . لانه يستحيل ان يسمع البعيدون كنجة الشرا كما نسمعها نحن ولا غناء ام كلثوم كما نسمعه ، فنصف الطلاوة والروح تبتلعها طبلة الفونوغراف كالثارة لاديسون او جزية له . وهو جدير بهذه الجزية لو كانت تنفعه . ولكن الناقص خير من العدم.

وسأله : هل الموسيقى الشرقية ارقى مما كانت عليه منذ ٥٠ او ١٠٠ سنة مثلاً. فاجاب:

لا.لا انكر ما ادخل عليها من التفنن.ولكن ليس كل تفنن كان ارتقاء. بل كثير منه ردّ الموسيقى الشرقية الى الوراء . لقد اهمل اساتذة الآلات والغناء والتلحين باب التوشيح وهو اعظم وافخم باب في الالحان الشرقية وبكل اسف استعاضوا منه بباب الطقاطيق وما هي الا خيالة الفن . ابن اعظم طقطوقة من احقر توشيح.

قلت : والله اصدقك القول يا سامي . اني اطرب بالتواشيح التي تغنيها الجوقة قبل صعود المغني او المغنية الى المنصة اكثر من جميع الطقاطيق.

قال: لم تسمع الّا ابسط التواشيح ، واكثرها قد تشوه . . . بالك لو سمعت التوشيح الملقب « حيّ »

قلت : ما هذا ؟

قال : مطلعه :

اسق العطاش تكرما فالعقل طار من الظما

يستغرق ضربه وغناؤه نحو ٤ ساعات ، ويستلزم جوقة مؤلفة من عدة آلات وعدة مغنين مختلفي الاصوات . فاذا سمعته على اصوله استغربت لانك ترى فيه الطلّ ، اي الارمونيا (Harmony) ، اعظم وافخم جداً مما تسمعها عند الافرنج . وحينئذٍ تعلم ان الارمونيا كانت موجودة في الشرق قبل ان توجد في الغرب.

ثم قال : قبيل الحرب كان اثنان من سراة المصريين الولوعين بالغناء في سورية فبلغ اليهم ان المرحوم والدي سيحيي حفلة طرب نادرة في حلب. فاسرعا الى حلب وحضرا تلك الليلة . ولما عادا الى مصر زارني احدهما وجعل يصف لي تلك الحفلة التي حوت على قوله جمهوراً عظيماً كان اعجوبة في هدوء. قال: « ثم ابتدأت الآلات (وعددها بضع عشرة) بغتة بمدخل ملائكي اخذ لبّنا فكنا انا وصاحبي كأننا في سكر . ثم طلع المغنون بالاصوات المختلفة بتوشيح « حيّ » . فشعرنا كاننا قد انتقلنا الى عالم الغيب. اذا كانت موسيقى الملائكة حول العرش الرباني هكذا فأحرِ بجميع الناس أن يتقوا الله لكي يؤذن لهم في الآخر ان يسمعوا هذه الموسيقى . فكفى بها ثواباً في الآخرة. قال: انقضت اربع ساعات في ذلك الموشّح ونحن لا نظنها اكثر من نصف ساعة . كانت السحر ، الذي لعب بالالباب ، لما تقلب فيها من الانغام ، وتجاوبت بها الآلات وتناجت الاصوات باساليب يستحيل وصفها.»

قلت : لماذا يا سامي لا تؤلف جوقة وتخصها باسماع الجمهور توشيح «حيّ» وامثاله ؟ فهذا ضرب من الموسيقى لا يعرفه الجمهور ، والحق على اساتذة الفن